تجنيس الخطاب الرسائلي بين المعيارية والانزياح

أ. دردار البشير
المركز الجامعي - تيسمسيلت

يفترض الخوض في موضوع تجنيس الخطابات الرسائلية التعرض لإشكالات متعددة ومتشابكة، قد لا نجدها في معالجة أجناس خطابية أخرى. وتتعلق هذه الإشكالات بمستويات التحليل المختلفة؛ اللسانية والتلفظية والخطابية، في حال تمايزها كما في حال تداخلها وتفاعلها. ومما ينفرد به الجنس الرسائلي من قضايا لا تزال تثير الجدل؛ قضية التسمية وتفلّت دلالاتها، وظاهرة اللاتجانس الخطابي والجنسي، ومشكلة الأدبية وحدود الاستدلال عليها، وقضايا أخرى عديدة، كخصوصية العقد التواصلي في الرسائل، والإكراهات المتصلة به على الصعيدين المقامي والخطابي. ولَمَّا كانت الاستفاضة في معالجة كلّ هذه القضايا متعذّرة في هذا المقال، فسنقتصر فيما يأتي على استثمار المفاهيم التّداوليّة الأساسيّة في إبراز الخصائص التّجنيسية (الخارجيّة/ المقاميّة)، و(الدّاخليّة/ الخطابيّة والنّصّيّة للجنس الرّسائليّ).

1- الخصائص التّجنيسيّة الخارجيّة للخطاب الرّسائليّ:

يلفت انتباهنا اسم الجنس الرّسائليّ ممثّلا في لفظ (رسالة) إلى خاصة مميّزة قد لا توجد في غيره من أسماء الأجناس، حين ننطلق في مقاربتها دلاليا من منظور الحوارية الباختينية القائلة بوجود هرميّة أجناسيّة ذات طبقتين كبريين، طبقة الأجناس الأوّليّة الّتي تندرج فيها أجناس الخطابات العادية الّتي تنتج في يوميات النّاس العادية، وضمن أوضاع الحياة الواقعيّة، فتشمل أنواعا من السّرد، والحجاج، والوصف[1]... وغيرها، وطبقة الأجناس الثّانويّة الّتي تحتضن الخطابات المعتنى بصياغتها والتي ترتبط بمقامات خاصّة ومؤسسية، كأصناف الخطاب الأدبي، والخطاب العلمي، والخطاب الإيديولوجي... ألخ[2].

فالخاصّيّة المميّزة لاسم الجنس الرّسائلي هو أنّ الاسم نفسه يغطّي الأجناس الأوّليّة للرّسالة والأجناس الثّانويّة، بصورة تجعل الدّلالة الاصطلاحية لهذا الاسم ضعيفة وغير دقيقة. ولعل هذا ما سبب في الماضي ظاهرة الإعراض عن الاعتراف بالأجناس الرّسائليّة الثّانويّة عند الغربيّين، على غرار ما فعل (غوستاف لانسون) Gustave Lanson ()الذي استبعدها من تصنيف الأجناس الأدبية، بدعوى أنها مجرد محادثات مكتوبة، و أصرّ على موقفه ذاك، حتى في موقف الحكم على رسائل الأدباء عندما قال:« إنّها أعمال ليس لها من الرّسائل إلاّ الاسم»[3]. والوجه الآخر من إشكالية اسم الجنس الرّسائلي هو استعصاء الأجناس المندرجة تحته على التّصنيف، لكثرة عددها وتنوّع خصائصها المقاميّة والخطابية والنّصّيّة [4]، فقد أُحصِي في العصر القديم بأوربا «ليس أقل من تسعة وأربعين شكلاً من الرسائل، دون حساب الأجناس المتعددة للمراسلات المهنية»[5]. وفي أدبنا العربي القديم ولّد اسم الجنس الرّسائليّ إشكالا من نوع آخر، هو وقوع الدّارسين العرب المعاصرين في مأزق التّصنيف العشوائي للرسائل، كما يذهب إلى ذلك صالح بن رمضان، منبّها إلى أنّ ذلك التّصنيف «قد حجب... إمكانات أخرى يمكن أن تعتمد في تصنيف الرسائل، منها أجناس الخطاب وخصائص التلفظ»[6] التي من شأنها أن تساعد على ضبط تصنيف أوفى من حيث دلالته على خصائص كل جنس من الأجناس الفرعية التي يجمعها.

1-1- "التّفاعل" الرّسائليّ ومقتضيات التّعاقد التّواصليّ:

يبدي كثير من الباحثين تحفّظهم على إمكانية وجود "تفاعل"تواصليّ عبر الكتابة[7]، ويتأسّف آخرون على ما جنته اللّسانيات الشّكليّة على أجناس من الخطاب قدَرُها ألاّ تتحقّق إلاّ من خلال الكتابة[8]. فيسعون إلى إيجاد توليفات من المفاهيم علّها تسعفهم في دراسة هذا النّوع من الخطابات دون الإخلال بالشّروط العلميّة للبحث الأكاديمي،كما فعل (دومينيك مانغونو) *(Dominique Maingueneau)* في كتابه *(*Pragmatique pour le discours littéraire) عندما اجترح مفهوم (القراءة باعتبارها تلفظا) دعما وتكملة لمفهوم (التعاقد الأدبي)[9]. فضِمن أيّ تصوّر يمكننا مقاربة خاصية (التفاعل) ونسبتها إلى الخطاب الرسائلي؟ وما هي الإكراهات المقامية التي تنتج عن هذا التفاعل في حال إقرارنا بوجوده؟

لمحاولة مقاربة موضوعة (التفاعل) في الجنس الرسائلي، نستعين بالمقارنة التي أجرتها ك.ك. أوركيوني(Catherine kerbrat-Orechionni) بين التفاعل الرسائلي والتفاعل الشفوي (في المحادثة) في مقال لها بعنوان (L'interaction épistolaire)، إذ انتهت الباحثة إلى إبراز الفروق التالية :

– التباعد الزماني والمكاني يتيحان للمراسل الكاتب فسحة من الوقت لصياغة أقواله بعناية،ويعطيانه فرصة إعادة النظر فيها وتصحيحها وتنقيحها بالزيادة والنقصان والحذف والإضافة، وهو ما لا يتاح في المحادثة.

– الاختلاف المتعلق بالمؤثرات الصوتية غير اللغوية والحركات والإيماءات التي تغيب في التواصل الكتابي، والتي يحاول الكتّاب تعويضها دون نجاح كبير من خلال علامات الترقيم، والعبارات ذات الوظيفة التنبيهية...الخ.

– غياب التفاعل بمعناه الاصطلاحي الدقيق لتعذر التلقي الآني لكلام المحاور في التواصل الكتابي، فيقتصر التواصل على التحدث دون التحادث[10]، مما حدا بالباحثين إلى الحديث عن تفاعل مؤجل إلى حين قراءة الرسالة (القراءة باعتبارها تلفظا، عند د. مانغونو[11])، وينتج عن هذا الإكراه المقامي تأثيرات على المستوى الخطابي والنصي، تؤدي إلى اصطناع الكاتب لمواقف وردود أفعال يتوقعها وينسبها إلى المخاطب، وتحوّل من أدوار الكلام المتزامنة إلى أدوار الكتابة المتعاقبة زمنيا.

– افتقاد المقام التواصلي المشترك، وينتج عنه في الرسالة حرص على تعيين هوية المرسل والمكان والزمان، وينعكس ذلك بالضرورة على التكوين النصي من حيث استخدام الإشاريات المكانية والزمانية وأزمنة الأفعال[12].

ويذهب صالح بن رمضان في نفس الاتجاه مؤكدا على الإكراهات المقامية التي تنعكس تأثيراتها على المستوى النصي والخطابي، مع نزوعٍ إلى إبراز ما اختص به الخطاب الرّسائلي العربي القديم من خصائص مقامية. ففيما يخص إكراهات المقام الترّسّليّ يشير الباحث إلى الإكراهات التي تتعلّق بكل من المتكلم والمخاطب، ثم إلى تلك المتصلة بالزمان والمكان.[13] فالمتكلم يعفى من ضغوط تتصل بالمواجهة والارتجال وعمل الذاكرة، وبالمقابل يُطَالَب بتضمين رسالته قدرا من المعارف والاستشهادات، وإحكام بناء الرسالة وتقسيمها، في حين لا يستفيد المخاطب من حضور المتكلم في فضاء المواجهة وما يحمله من تعابير غير لغوية صوتية وحركية، ويعفى من ضغط التلقي المباشر الذي يحتم ردا آنيا[14]. والمخاطب قد يكون فردا معيّنا أو متعددا، وقد يكون معيّنا ويخاطب من ورائه عامة القراء «و قد يجتمع الوضعان في بعض أنماط الترسل فيكون المخاطب مزدوجا، أحدهما مصرح به في النص، مذكور في المقدمة، كابن القارح في رسالة الغفران، و لكنه يتخذ مطية لمخاطبة قارئ عام»[15]، كما أن للتفاوت بين زمن الإنشاء وزمن التلقي –في نظر الباحث– آثار تتجلى في بروز حوارية أو أصواتية في حمل الرسالة لملفوظات المخاطب، يستحضرها المتكلم في خطاب رسالته، إلى جانب الإشارة إلى زمن الكتابة وربما زمن تلقيها. وهذان الأثران لا يكونان بنفس الصورة في التواصل الشفوي[16].

يضاف إلى ما تقدم في أطروحة صالح بن رمضان حول الإكراهات المقامية للجنس الرسائلي آثار التباعد المكاني، إذ «تنطوي خصائص التخاطب من حيث التعبير عن التباعد في المكان على تناقض محتوم: فهي ترمي

إلى إلغاء التباعد ولكنها تعمقه في الآن نفسه»[17].ويُلجأ إلى تجاوز التباعد المكاني في الخطاب الرسائلي بإدراج عناصر سياقية نصية تتعلق بمتابعة المرسل أحوال المرسل إليه، وتوقعها. وهي العناصر التي تساعد القارئ غير المعني مباشرة، على تأويل الخطاب الرسائلي وحسن التفاعل معه. كما تساهم سمة التبعيد في «كسر التخاطب الثنائي الذي تقوم عليه المراسلات و من مجاوزته إلى تخاطب منفتح على عامة القراء»[18] ويمكننا أن نسمّي ذلك إضاءة السياق التواصلي الذي يتم من خلال مسرحة الأصوات المستحضرة في الرسالة.:

2.1- اللا تجانس الخطابي و الجنسي في الرسائل:

من الخصائص التجنيسية الخارجية البارزة في الخطاب الرسائلي خاصية اللاتجانس الخطابي والجنسي[19]، إذ يتسع هذا الخطاب لحمل شتى أنواع الملفوظات بحسب المقام الذي ينتج ضمنه، و هي خاصية عامة تميز كل الخطابات وفق التصور الباختيني، وينفرد الخطاب الرسائلي –وهو حواري بطبيعته– بحضور خطاب المخاطب فيه إما عن طريق الاستحضار المظهر الصريح أو عن طريق المضمرات والافتراضات المسبقة. كما أن الخطاب الرسائلي من الطواعية والمرونة بحيث يستوعب أشكالا لا حصر لها من اللاتجانس الأجناسي، إذ«تستطيع الرسالة التي هي جنس محدد من خلال مقصدها الخاص، أن تكون شعراً أو نثراً، ويمكنها أن تمتلك الموضوعات الأكثر تنوعاً دون أن تتوقف مع ذلك، عن أن تكون رسالة»[20] وهذه الظاهرة يسميها باحثون آخرون بتداخل الأجناس، كأن يُحْمَل خطابُ الرسالة في جنس آخر، أو يكون هو حاملا لأجناس أخرى،كالقصة أو الموعظة، أو المناظرة... وغيرها من الفنون النثرية والشعرية. وقد لا حظ صالح بن رمضان «أن لحضور الرسائل في أدب الأخبار و السير و انفتاحها على أجناس السرد الذاتي و احتضانها لمقاصد الخطابة و الشعر صلات أدبية تمثل جميعها وجوها من التداخل بين الرسائل و هذه الأجناس»[21].

ونخلص مما تقدم إلى أن هذه الخصائص المقامية التي عرضنا لها بإيجاز، مبرزين ما ينجم عنها من إكراهات تمارس تأثيرا مؤكدا على ما أسماه (د.مانغونو) (D.Mainguenau) التعاقد الأدبي باعتباره انزياحا عن العقد التواصلي الكلي الذي نادى به شارودو[22]. فمجمل الإكراهات التي أتينا على ذكرها، ولاسيما تلك التي تعدّل صورة التفاعل مقاميا وتلفظيا في الخطاب الرسائلي، تفرض تصور تعاقد يأخذ في الحسبان تأجيل التلقي، ومن ثم تعليق إنهاء عملية التلفظ واكتمالها إلى حين قراءة نص الرسالة، فيكون التعاقد الأدبي –في حالة الرسائل الأدبية– متضمنا لقواعد تتصل بتعويض المؤثرات المقامية التي يغيّبها التباعد المكاني والتفاوت الزمني، كما يتضمن اتفاقا ضمنيا بين الكاتب ومخاطبه المعني بالرسالة، وربما جمهور القراء من ورائه حول مسارات التأويل التي ينبغي أن يسلكوها جميعا، أو كلاً حسب مقام التلفظ/ القراءة الذي يخصه. يقول (د.مانغونو) (D.Mainguenau): «إننا إذن حيال نموذج استراتيجي للقراءة، لا نموذج خطي. فالكاتب يتعين عليه أن يضع فرضيات حول فك شفرات نصه، وأن يفترض أن القارئ كما يتصوره يشاركه فهم أنظمة التشفير (الثقافية واللغوية) التي يعتمدها. وبالمقابل يكون على القارئ أن يبْتَنِي لنفسه تمثّلا لما ستكون عليه سيرورة النص، مفترضا أن الكاتب يخضع لنظام تشفيري معين»[23] وهو ما يكفل له نظريا تأويلا له درجة ما من المقبولية.

2- السمات التجنيسية الداخلية لخطاب الرسائل:

إن استخدام الكتابة في التواصل عامة تترتب عليه آثار تمس الجوانب التكوينية النصية للخطاب، إذ يوصف المكتوب عادة بأنه ملفوظ مستقل عن مقامه، مما يجعله ينغلق تدريجيا على نفسه «ويبني مجموعة من الرواسم الداخل نصية؛ وتنتشر فيه التوابع التركيبية بأكثر ما يكون من الضبط»[24]. وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على الخطاب الرسائلي لكونه النموذج الذي يمثل التواصل الكتابي بامتياز. ويأخذ ذلك صورة تُنَاظِرُ في العديد

من الجوانب صورةَ التواصل الشفوي، وهو ما يحفز الباحثين على فحص كلا النمطين من التفاعل من خلال مقارنته بالآخر. فيقابل احتضان السياق للتفاعل في المحادثة الشفوية غيابه في المراسلة، وتقابل آنية التلقي وتداخله مع البث في المحادثة، تعليقه وتأجيله وتمايزه في المراسلة... وهكذا مع الكثير من جوانب التواصل المقامية والخطابية والنصية[25].

2-1- أقسام الرسالة/ القاعدة و الاستثناء:

يشير (ج.م. أدام) (J. M. Adam) وهو يحلّل البنية التكوينية للشكل الرسائلي، إلى التقليد القروسطي الأوربي، الذي يهيكل الرسالة ضمن خمسة أقسام: التحية، الاستمالة الطوعية، السرد/ العرض، الطلب، الخاتمة. ثم يعقبه بعرض التقليد الكلاسيكي الغربي الذي يجعلها ثلاثة فقط: الاتصال بالمرسل إليه، عرض الموضوع ومعالجته، وإنهاء الرسالة[26]. أما من منظور تداولي ونصي، فينبغي الانطلاق -في نظره- من وجود وحدة نصية كبرى هي (النص الحواري الثنائي) الذي يتضمن تخطيطا نصيا إكراهيا: مقاطع تنبيهية في المقدمة والخاتمة من جهة، ومقاطع تفاوضية تشكل جسم التفاعل من ناحية أخرى[27]. ليخلص من ذلك إلى أنه ينبغي أن نميز في البنية الشكلية لكل نص رسائلي المخطط النصي القاعدي التالي[28]:

صدر أو افتتاح *Ouverture*	مخاطبة استهلالية *Exorde*	متن أو جسم الرسالة *Corps de la lettre*	تخلص *Péroraison*	خاتمة أو اختتام *Clôture*
ذكر العنوان والتاريخ والمكان *Termes d'adresse & indication de lieu et de temps*				إنهاءالرسالة والإمضاء *clausule et signature*
1	2	3	4	5

والملاحظة التي يمكننا أن نبديها حول هذا المخطط هو أن التقليد العربي، كما يتجلى في نصوص الرسائل التي وصلتنا يهمل في الغالب الأعم ذكر المكان والزمان، رغم ما تضمنته بعض الرسائل من الإشارة إليه والمؤاخذة على تركه[29]. ويعلل صالح بن رمضان ذلك بـ: «أن التخاطب الثنائي حَمَل الكتّابَ في رسائل كثيرة على إهمال هذا العنصر، إذ كانوا يعولون على معرفة المخاطب بمكان صدور الرسالة وزمنه، فيكتفون باستعمال الإشاريات المكانية و الزمانية من قبيل هنا وهناك، وهذا البلد أو الإشارة إلى أحداث ووقائع معينة ...الخ»[30]. والمفارقة هي أن التقليد الغربي كما يوضح أدام ذلك، يتسامح في القسمين (2) المخاطبة الاستهلالية و(**4**) التخلص، مخالفا بذلك التقليد العربي الذي يبالغ في العناية بهما. ومردّ ذلك -في نظره- إلى أنهما فضاءان خطابيان انتقاليان (مقدمة للتهيئة، وتدحرج نحو الختام) يقعان بين لحظتي الابتداء والانتهاء من جهة، وجسم الرسالة من جهة ثانية. وهما اختياريان لأنهما يؤديان وظيفة تنبيهية، أي تهيئة تلقي التبادل بصيانة وجه الآخر(المخاطب) من خلال إدراج الموضوع والتمهيد له، ثم تلخيص الإقناع وإنهائه ،عبر اللجوء إلى الإثارة الانفعالية (جرعات انفعالية تأثيرية) تهيئ للتفاعلات المستقبلية مع المرسل إليه[31].

يختلف التقليد العربي القديم إذن عن التقليد الغربي في الأقسام التي يمكن الاستغناء عنها، أو لنقل فيما هو اختياري وما هو ضروري من هذه الأقسام. إلا أن هذه الملاحظة ينبغي أن تردف بالإشارة إلى أن التقليد الغربي في هذه المسألة يخص كل الأجناس الرسائلية، أما ما قلناه عن التقليد العربي القديم فلا يعني سوى الرسائل التي عدها مؤرخو الأدب ودارسيه ضمن الموروث الأدبي.

أما جسم الرسالة فهو القسم الأقل خضوعا للتنميط، فليس بالمستطاع حصر خصائصه المائزة، ولا وصفها بالاطراد و الثبات. ولذلك أسباب تتعلق أساسا بتنوع المقامات التي ترتبط بها أنماط لا حصر لها من الرسائل، الأمر الذي يتولد عنه على المستوى التكويني طواعية جسم الرسالة لحمل مضامين متنوعة عبر تنويعات نصية تتناسب مع المكون المهيمن و المقاطع التي يتركب منها.

يذهب أدام إلى أن جسم الرسالة قد يتضمن مقاطع وصفية، أو سردية، أو تفسيرية تبريرية، أو حجاجية، كما يمكنه أن يقتصر على تحضير فعل خطابي بسيط (شكر، طلب، تعزية). وكل هذه الخيارات التكوينية متاحة في الرسالة دون قيود تذكر. فبحسب أجناس الرسالة نستطيع التنقل بدرجة معينة من الحرية، من موضوع إلى آخر في جسم الرسالة. وهذا التنوع يفسر التخطيط الطيّع لجسم الرسالة والإمكانات الوفيرة لتقطيعه، إذ يكفل الانتقال من فقرة إلى فقرة القفز من موضوع إلى موضوع آخر(32).

2-2-الخطاب الواصف في صدور الرسائل و خواتمها:

يسم الخطاب الواصف المحمول في خطاب الرسائل المقام التلفظي الذي أنتج فيه، من خلال توظيف العناصر التأشيرية، التي تؤدي وظائف متعددة، ومنها على الأخص الوظيفة التنبيهية. ويتجلى ذلك أحيانا في كثرة الإحالات إلى الإطار المكاني والزماني، بصورة تعكس الإكراه المقامي الذي يسعى كاتب الرسالة إلى تجاوزه، عبر استحضار المقام ونصبه في النص متوسلا إلى ذلك بالخطاب الواصف، الذي يكشف المفارقة التي تميز الخطاب الرسائلي، فهو بقدر ما يوهم بالحضور يؤكد الغياب(33).

تؤكد ك. ك. أوركيوني في وصفها للخصائص التكوينية للصدور (الافتتاحيات) والخواتم، على أن الاستراتيجيات فيها تتمثل فيما يلي:

– لا تشتمل افتتاحيات الرسائل من حيث المبدأ على عبارات التحية، إذ تحل محلها العبارات الدالة على العنوان.

– تختلف الجداول الإبدالية لعبارات النداء المستعملة في الكتابة عنها في المشافهة(عزيزي فلان...) للتخفيف من التأثيرات السلبية للتباعد المكاني.

– في أعقاب النداء قد ترد عبارات تمنٍّ تخص حاضر ومستقبل المرسل إليه بالنسبة لزمن كتابة الرسالة.

– ترد في الافتتاح غالبا تعليقات على الإطار الفضائي الذي يوجد فيه الكاتب/ المرسل، أو المرسل إليه أحيانا، أو كلاهما . وقد تردف بعبارات الشكر من جانب المرسل إليه في رده .

– تغلب على الرسالة الأساليب الإنشائية، لاسيما الطلبية منها كالأمر والتمني(34).

أما في الاختتام فانتهت الباحثة إلى رصد الخصائص التالية:

– قد يحدث خرق لقواعد التخلص/ ما قبل الاختتام، فيكون استثنائيا، كأن يحدث فيه استئناف غير متوقع للكلام، لأجل إضافة أو تصحيح وما شابه.

. يُلجأ أحيانا في الخواتم إلى تبرير إنهاء الرسالة بالمشاغل، أو نفاد القول في الموضوع، أو غير ذلك من التبريرات. و قد تشتمل على عبارات تلطيفية (أسف، وعد، الخ)

. استعمال ملفوظات إنجازية Performatifs مثل (أتوقف هنا) ،(أتركك)، (أو مصحوبا بموجه أخلاقي (يجب أن أتركك).

. استخدام ملفوظات تحدد طبيعة العلاقة الاجتماعية العاطفية

. قد تشتمل الخواتم على عبارات الشكر، والتمنيات (الدعاء)المختلفة، كتمني اللقاء، أو دوام الصحة والعافية، أو طلب الجواب.(35)

ولأجل الوقوف على خصوصية الخطاب الرسائلي العربي القديم، فيما يتصل بصدور الرسائل وخواتمها، نحاور الدراسة القيمة التي أنجزها صالح بن رمضان حول هذا الخطاب في الأسطر التالية.

ينطلق الباحث من القول بأن الدعاء في الرسائل قول أدبي "يحمل خصائص التلفظ في مقام الرسالة الخاص وسياقها اللغوي المتصل بأوضاع التخاطب"، وتتنوع صيغ إدراجه ووظائفه بحسب مقتضيات المقام الأدبي للترسل، كالعلاقات السياقية التي تربطه بأقسام الرسالة، أو العلاقات المقامية التي تربطة بمراتب المخاطبين. ثم يقف عند ممارسات الكتاب، فيشير إلى وجود تنازع بين الرسائل

الأدبية كممارسات خطابية والتقنينات التي وضعها منظرو الخطاب الرسائلي القدماء لأسلوب الرسائل، وما نجم عن ذلك من خرق لهذه المواضعات أحيانا للتوفيق بين السنن الاجتماعية الثابتة والمتطلبات الأسلوبية والخطابية المتغيرة لخطاب الرسائل(36).

وإذا كان لا بد من التفصيل والتمثيل، فإن الباحث يتعرض إلى تحديد صيغ الدعاء في صدور الرسائل وخواتمها وتقييدها بقواعد صارمة، ومثّل لذلك بما فعله كاتبان ممن نظروا لكتابة الترسل قديما، وهما: إبراهيم بن المدبر (ت 279 هـ)وسليمان بن وهب (ت **272** هـ)بحيث وضعا صيغا للدعاء تعكس مراتب المخاطبين وأغراض الرسائل ،بل و تناسب أقسام الرسالة أيضا. يقول ابن المدبر على سبيل المثال موجها الكتاب:"وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكرى البلوى(...): "نسأل الله دفع المحذور، ونسأل الله دفع السوء"" (37) أما وظائف الدعاء فمتعددة منها مثلا التلطيف في رسائل شكوى الزمن، كما أن للدعاء وظائف خطابية مثل وقف دفق الكتابة والتهيئة لإنهاء التخاطب الرسائلي، وله وظيفة اجتماعية هي إقرار وتثبيت التراتبية الاجتماعية. وقد عمل على ترسيخ هذه الطقوسية كتاب الدواوين، وأكثرهم من مشاهير كتاب الرسائل(38)، لما كانوا يضطلعون به من مهام إدارية رسمية، انطلاقا من الإيطوس المستعلي لكاتب الديوان المقرّب من السلطة. إلا أن الكتاب لم يلتزموا بهذه الصيغ الطقوسية الثابتة التزاما كاملا، فقد تمرد عليها الكثير منهم، ومنهم من دعا صراحة إلى ترك الكاتب يتصرف فيها وفق مقتضيات مقام التخاطب وسياق النص. يقول محمد بن عبد الغفور الكلاعي:"مما يجب على الكاتب أن يتحرى في الدعاء الألفاظ الرائقة، والمعاني اللائقة، ويتوخى من ذلك ما يناسب الحال ويشاكل المعنى ويوافق المخاطب". وهذا بالفعل ما طبقه بعضهم فخرق قواعد الاستعمال التي تحدث عنها ابن المدبر وأمثاله ،فوجدنا إبراهيم الصولي يستعمل صيغة "جعلت فداك "في رسالة استعطاف إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المتوكل. وكذلك فعل الجاحظ في رسائل المدح الجاد والعتاب الساخر (رسالة الجد والهزل، ورسالة في مدح أبي الفرج بن نجاح مثلا (39). وفي هذا النوع من الانزياح الخطابي ما يكشف عن استعصاء التصنيف الصارم للخصائص التكوينية للجنس الرسائلي، حتى في أقسامه الأكثر خضوعا للطقوس الخطابية.

3-2- الضمائر و تعيين أطراف التواصل:

يعد طرفا التواصل أو أطرافه عناصر أساسية في المقام التواصلي، ويتم تعيينها من وجهة نظر لسانية تلفظية، بواسطة المصطلحات التالية :المتكلم والمخاطب، أو المتلفظان الشريكان، أو المرسل والمرسل إليه. أما على المستوى النصي فيتم الإرجاع إليهما بواسطة الإشاريات الشخصية التي تشترك مع باقي عناصر النظام التأشيري(40) في ربط الخطاب بمقامه التلفظي، ومن ثم تهيئة شروط تلقيه وتأويله اعتمادا على التعليمات التي يتضمنها الوسم اللغوي للمشاركين في التلفظ وزمانه ومكانه وسائر عناصر السياق المقامي والنصي.

وتسمى هذه الوحدات اللغوية، ومنها الضمائر أيضا واصلات لأنها تقوم بوظيفة ربط الملفوظ بمقام التلفظ. فتبرز بذلك الانعكاسية الجوهرية في النشاط اللغوي،إذ يتحدد الملفوظ بالتلفظ، كما يتحدد التلفظ بواسطة الملفوظ. هذا على المستوى اللساني النظري، أما إذا انتقلنا إلى تطبيقات التحليل النصي، فتطرح الواصلات ومنها

الضمائر بطبيعة الحال، مشاكل عدة، خاصة في ذلك النوع من النصوص الذي يتحول فيه فضاء النص إلى فضاء إحالة للنص نفسه، أو في حالة تضمن النص لعدة أنظمة متراكبة لرصد العناصر المقامية، كحالة الخطاب المستحضر. لذلك ينبغي تحليل الواصلات باعتبار مشهد التلفظ الذي أسسه الخطاب(41).

في حالة الخطاب الرسائلي، تحضر الإشاريات الشخصية بقوة، وخاصة ضمائر المتكلم والمخاطب، باعتبارهما من الخصائص التكوينية المائزة لهذا الجنس من الخطاب، وبالتحديد في أقسام الرسالة ذات الوظيفة التنبيهية والإحالية التي تربط الخطاب بمقام التلفظ كتابة وقراءة. كما قد يعدل في بعض أجناس الرسائل إلى استخدام ضمائر أخرى، كضمائر الغياب، أو ضمائر جماعة المتكلمين والمخاطبين، استجابة لمقتضيات بعض المقامات الخاصة المرتبطة بالتراتبية الاجتماعية، أو بطبيعة العلاقة الاجتماعية والعاطفية بين المتخاطبين... وهكذا.

وقبل الخوض في مسألة توظيف الضمائر في الخطاب الرسائلي العربي القديم، يحسن بنا أن نقف عند الجانب النظري النحوي المتصل بالوظائف التداولية لهذا النوع من العناصر الإشارية. فالضمائر في العربية تنقسم حسب حضورها في المقام أو غيابها عنه «(أي حسب مشاركة الأشخاص المشار إليهم في عملية التلفظ أو عدم مشاركتهم فيها) إلى فرعين كبيرين متقابلين هما: ضمائر الحضور وضمائر الغياب؛ ثم تتفرع ضمائر الحضور إلى متكلم هو مركز المقام الإشاري وهو الباث، وإلى مخاطب يقابله في ذلك المقام ويشاركه فيه، وهو المتقبل؛ وكل مجموعة منها تنقسم بدورها حسب الجنس والعدد إلى أقسامها المعروفة. أما ضمائر الغياب فمعيار التفصيل فيها لا يتجاوز الجنس والعدد ؛فضمائر الحضور أكثر تفصيلا من ضمائر الغياب، وهذا يرتبط(...) بأولوية الشخوص المشاركة في عملية التلفظ» (42) ويؤكد هذه الأولوية وبتفصيل أدق النحاة العرب القدماء فيما يعرف بمفهوم الأخصية. يقول ابن عقيل: «ضمير المتكلم أخص من ضمير الغائب، وضمير المخاطب أخص من ضمير الغائب» (43).

ويعيدنا هذا إلى طرح السؤال مجددا: هل يوجد تطابق بين اشتراطات الوضعية التواصلية والسمات الشكلية للجنس الرسائلي؟ فإذا كانت الرسالة تعرف من حيث التجنيس الخطابي بسمات الكلام المكتوب الموجه إلى شخص آخر(مرسل إليه محدد)، فهي تعرف أيضاً بسمات تركيبية ودلالية: وجود ضمير الشخص الثاني،إلى جانب الشخص المعين بضمير المتكلم، وهو كاتب الرسالة(44). هذه هي السمات القاعدية التي يفترض أن لا تخلو منها رسالة . غير أن الممارسات الخطابية تنحو ككل خطاب إلى التكيف مع المقامات وإكراهاتها، ولا سيما في الرسائل التي تدرج ضمن دائرة الأجناس الأدبية. فما هي أصناف التصرف في البنية الإشارية الضمائرية التي يمكننا استخلاصها من فحص مدونة الرسائل الأدبية القديمة؟ يجيبنا عن هذا السؤال صالح بن رمضان في كتابه (الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم)، بما فحواه أن هناك تنويعا في استعمال الضمائر في الخطاب الرسائلي القديم، إذ الأصل في الرسائل أن التخاطب فيها يكون بين طرفين .لذلك تستعمل فيه الضمائر في الصور التالية التي نجدها في أجناس خطابية كثيرة:

أ) متكلم مفرد ومخاطب مفرد، أو غائب مفرد (أنا/أنت ،أو أنا/ هو)، وتستعمل أيضا "القص ضمن الحوار السردي، والحديث الباطني، والحديث المنقول، وفي المسرح حوارا صرفا، وفي الوصايا... والمفاخرات الفردية "وهذه الصورة أعلق بالرسائل، والذي يهمنا هنا هو بيان عدول الكاتب عن ضمير المخاطب إلى الغائب. يقول القلقشندي: «ثم راعى الكتاب في تعظيم المكتوب إليه أن عدلوا عن خطابه بالكاف عن نظير خطاب المواجهة إلى معنى الغيبة فقالوا: له و إليه و عنده و نحو ذلك»(45). وتحولت هذه الصيغة التي كانت استثناء إلى قاعدة في القرن الرابع الهجري، فضاق بها الكتاب هي أيضا ورغبوا في العدول عنها .يقول الشريف الرضي: «وأسأله –أيده الله– أن يحتمل لي في الخطاب العدول عن الهاء إلى الكاف»(46).

ب) متكلم مفرد ومخاطب بصيغة الجمع (أنا/أنتم): ونجده إلى جانب الرسائل في القص، والخطب، والوصايا العامة. ومثالها في مقام الترسل، رسالة سهل بن هارون إلى بني عمه، أو رسالة الخوارزمي إلى شيعة نيسابور[47].

ج) متكلم بصيغة الجمع ومخاطب بصيغة الجمع (نحن/أنتم): ويشيع كذلك في المفاخرات القبلية شعرا ونثرا وفي بعض الخطب. ونمثل في مقام الترسل برسائل المفاخرات عند الجاحظ، ورسائل المفاخرات بين الأندلسيين والقيروانيين[48].

د) متكلم بصيغة الجمع ومخاطب مفرد (نحن/أنت) وهو قليل، وإذا وجد يكون ضمير المتكلم الجمع عائدا على مفرد. وتملي هذا الاستعمال مقتضيات المقام الخاصة بالجنس الأدبي في حالات مخصوصة[49].

يتبين لنا مما تقدم أن التخاطب الثنائي Dialogal تشترك فيه عدة أجناس أدبية، لكن الأجناس الرسائلية تتميز عنها جميعا بأنها تجمع بين نمط التخاطب الثنائي وتباعد مكان المتخاطبين، مما يجعلها أجناسا حوارية بامتياز.

الهوامش

1- تزفيتان تودوروف وميخائيل باختين، المبدأ الحواري ،المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، **1996**، ط.**2**، ص.**156**.

2–م.ن.ص.ن.

3 – J. M. Adam, Les genres du discours épistolaire de la rhétorique à l'analyse pragmatique des pratiques discursives, Dans:La lettre entre réel et fiction, Sous la direction de Jurgen Siess, Ed. SEDES , **1998**، p.51.

4– جان ماري شيفر، ما الجنس الأدبي؟ تر. غسّان السيّد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، سورية، **2005**، ص.**88**.

5– م.ن.ص.ن.

6– صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، دار الفارابي، منوبة، تونس، **2001**، ط.**1**، ص.**64**

7 - Catherine kerbrat-Orechionni, L'interaction épistolaire, Dans:La lettre entre réel et fiction, Sous la direction de Jurgen Siess, Ed. SEDES, **1998**, p.p.**15-16**.

8-Francoise-Voisin Atlani :L'instance de la lettre، Dans:La lettre entre réel et fiction،Sous la direction de Jurgen Siess،Ed،SEDES **1998**،p**88-89**

9 – D. Mainguenau, Pragmatique pour le discours littéraire, Ed. Armand Colin, **2005**، p.**122**.

10 - Catherine kerbrat-Orechionni, L'interaction épistolaire, Dans:La lettre entre réel et fiction,p.p. **16-17**.

11 – يقول مانغونو إنه بالرغم من أن الخطاب الأدبي لا يخضع لقوانين كتلك التي يخضع لها الخطاب العادي القائم على التفاعل المباشر، حيث لا يستطيع المتلقي التدخل في نص اكتمل إنجازه، إلا أن خضوع الخطاب الأدبي لقوانين الخطاب، كقانون التعاون، أوقانون الجهية لا يمكن إنكاره، وإن كان يتم بطرق خاصة بهذا الخطاب، في إطار تعاقد أو اتفاقية خفية "Convention tacite"، يعرف المتلقي بموجبها كيف يهيكل انتظاراته، آخذا في الحسبان الاعتبارات المتصلة بالجنس الأدبي أو جنس الخطاب الذي يدعى إلى التفاعل معه.

12 -Catherine kerbrat-Orechionni:L'interaction épistolaire،،p**17-18**

13 - صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، ص.**124.**

14- م.ن.ص.ن.

15– م.ن. ص.**124–125**

16– م.ن. ص.**138–139**

17– م.ن. ص.**139**

18– م.ن. ص. **140**

19– يتم التفريق بين نوعين من اللاتجانس؛ اللاتجانس المظهَر Hétérogénéité montrée، واللاتجانس التكويني Hétérogénéité constitutive، فالخطاب من حيث تكوينه النصي يحمل **بطبيعته مقاطع نصية متنوعة، ومظاهر جهية متباينة،**

وتداخلا لأجناس وسجلات لغوية متعددة، تعكس وجود مستويات التلفظ و مصادره المختلفة، وفقا لمبدأ التعدد الصوتي أو الحوارية الملازمة لكل خطاب، فما كان من هذه العناصر مصرحا بمصدره التلفظي، أو ملمحا إليه من خلال واسمات لغوية، فهو من مظاهر اللاتجانس الخطابي المظهر، أو المعروض. وما كان مضمرا في الخطاب، شأن الافتراض المسبق ،و الضمنيات التحادثية، فهو من قبيل اللاتجانس الخطابي التكويني. (ينظر: ب. شارودو ود. مانغونو :معجم مصطلحات تحليل الخطاب ،ترجمة:صمادي حمود و عبد القادر المهيري،د ط،منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة،تونس **2008**، ص.ص. **282–283**)

20– جان ماري شيفر، ما الجنس الأدبي؟، تر غسّان السيّد، ص **78**.

21– صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، **ص89**.

22– يعرفه شارودو بأنه «مجموعة الشروط التي تحدد رهان التبادل التواصلي ، و التي بدون أن تتبينها أطراف التواصل يتعذر عليهم كلية فهم بعضهم بعض»ينظر:

Charaudeau Patrick:« Visées discursives, genres situationnels et construction textuelle » in Analyse des discours, Textes, types et genres, Actes du colloque de Toulouse, **2-5** décembre **1998**, Éditions Universitaires du Sud, **2001**, p. **12**.

23-D.Mainguenau, Pragmatique pour le discours littéraire, p.**50.**

24– ب. شارودو و د. مانغونو، معجم مصطلحات تحليل الخطاب، تر. حمادي صمود و عبد القادر المهيري، ص.**196**

25–نمثل لهذا النوع من البحوث بمقال ك.ك.أوركيوني المعنون:L'interaction épistolaire، والذي سبقت الإحالة إليه في هذا المقال.

26- J. M. Adam, Les genres du discours épistolaire de la rhétorique à l'analyse pragmatique des pratiques discursives, p.**41**.

27 – J. M. Adam, Les genres du discours épistolaire de la rhétorique à l'analyse pragmatique des pratiques discursives, p.p. **41-42**.

28- Ibid. p.p.**41-42**.

29- مثل الفضل بن الحباب الجمحي الذي لام إبراهيم الصولي على إغفاله ذكرهما :"وصل كتابك مبهم الأوان مظلم المكان، فأدى خبرا ما القرب فيه أولى من البعد " صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، ص.**153**.

30– صم.ن.ص.ص. **153 –154**.

31 - J،M،Adam, Les genres du discours épistolaire de la rhétorique à l'analyse pragmatique des pratiques discursives, p.**42**.

32- Ibid. p.**43**.

33 - Catherine kerbrat-Orechionni, L'interaction épistolaire, p.**17**.

34- Ibid, p.p.**19-23**.

35 –Ibid. p.p.**23-27**.

36– صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، ص.ص. **540–541**.

37– م. ن. ص. **530**.

38– م. ن. ص.ص. **530 – 531**.

39– م. ن. ص.ص. **532–533**.

40- يعني مفهوم إشارية (Deixis) تعيين مكان وهوية الأشخاص، والأشياء، والعمليات، والأحداث، والأنشطة، بالنسبة إلى السياق المكاني – الزماني الذي أنشأه و أبقاه عمل التلفظ"، وتقسم الإشاريات غالبا إلى ثلاثة أقسام: شخصية، مكانية، وزمانية، في تحليل الخطاب يكيف المفهوم ليتناسب مع الجنس الخطابي المعني بالدراسة، لذلك يقترح مانغونو مفهوم إشارية خطابية حتى يتناسب مع المقام الخطابي "الذي يبنيه الخطاب نفسه و الذي يزعم انطلاقا منه الإعراب عن مشهد تلفظه "، ويتم التفريق بين مشيرات مباشرة أو شفافة مثل: أنا، أنت، هنا، الآن، وأخرى غير مباشرة وغير شفافة مثل: هذا، ذاك، وهذه الأخيرة لا يتم التعرف على مرجعها مباشرة،كما يميز المشيري من العائدي على مستوى الوظيفة الإحالية، بكون الأول يحيل إلى وضعية التواصل المباشرة(سياق المقام)، أما الثاني فيحيل إلى مرجع موجود في النص (سياق النص)، ب. شارودو ود. مانغونو، معجم مصطلحات تحليل الخطاب، تر. حمادي صمود و عبد القادر المهيري، ص.ص. **156–157**.

41– نفسه، ص. **206**.

42 – الأزهر الزناد، نسيج النص،البحث في ما يكون الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي،الدر البيضاء،بيروت، **1993**، ط.**1**، ص. **117**.

43– أحمد المتوكل، الخطاب وخصائص اللغة العربية (دراسة في الوظيفة والبنية والنمط)، منشورات الاختلاف، الجزائر، **2010**، ط.**1**، ص.**115**.

44– جان ماري شيفر، ما الجنس الأدبي؟ تر. غسّان السيّد، ص. **90**.

45– صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة شعرية)، ص. **142**.

46– م.ن. ص. ن.

47— م.ن. ص. **141**.

48– م.ن. ص. ن.

49 – م.ن. ص. **142**.